

السيرة - رجال حول الرسول - الدرس (١٨-٥٠) : سيدنا أبو سفيان بن الحارث  
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٣-٠٢-٠٨

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .

### كيف كانت العلاقة بين أبي سفيان وبين النبي قبل البعثة ؟

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن عشر من دروس سيرة أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وصحابي اليوم: أبو سفيان بن الحارث .  
قصة هذا الصحابي تؤكد أن الحسد أحياناً يهلك صاحبه، لولا أن الله سبحانه وتعالى تلتطف به لكان من الهالكين .

المتكبر أحياناً يمنع الحسد أن يستفيد من رجل فاقه في العلم والتقوى، فهذا الصحابي الجليل أبو سفيان بن الحارث قلّ أن اتصلت الأسباب بين شخصين، وتوثقت العرى بين إنسانين ، كما اتصلت وتوثقت بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين أبي سفيان بن الحارث، يعني علاقة متينة، أخوة صادقة، وشائج ثابتة بين أبي سفيان بن الحارث وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لماذا؟ لأن هذا الرجل أبا سفيان بن الحارث كان لدةً من لدات رسول الله، لدة يعني من سنه، ومن جيله، الآن يقال: نحن رفقاء، كنا بالابتدائي معاً، نحن جيران، أولاد سنة وحدة، ولدنا في شهر واحد، والقراية في السن مهمة جداً، والإنسان له شيخ وأستاذ لا شك، لكن لا بد له من أخ في سنه يبيته وجدّه، اتخذ مؤمناً مخلصاً تقياً ورعاً صاحباً

فهذا الصحاب ينفعك كثيراً، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ:  
(( لَا تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا ))

[ أخرجه أبو داود في سننه عن أبي سعيد الخدري]

وفي الحكم العطاءية:



((لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، ومن لا يدلك على الله مقاله، إن أحببته رفعك حاله،  
وإن استمعت إليه غدتك مقالته))

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِدُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ  
مِّنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

(سورة التوبة الآية: ٢٣)



يجب أن تختار أصدقاءك كما تختار  
أعلى شيء عليك، إنك به تعرف،  
الصاحب صاحب ، وَمَنْ جالَسَ جالَسَ،  
إن صحبتَ الكبراء فأنت منهم، إن  
صحبتَ العلماء فأنت منهم، وإن  
صحبتَ أولي الفضل فأنت منهم، أخطر  
شيء في الحياة صاحبُ السوء، فإن  
يهلك قرينه .

الإنسان العاقل يختار إنساناً مؤمناً، أرسخ منه إيماناً، وأشد منه ورعاً، فهذا أبو سفيان كان لدة من  
لدات رسول الله، وتربياً من أترابه، وُلدا في زمن متقارب، وكان ابن عم النبي، فأبوه الحارث وعبد الله  
والد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينحدران من صُلْبِ عبد المطلب، ثم إنه كان أخاً للنبي عليه  
الصلاة والسلام من الرضاعة، فقد غَدَّتْهُمَا السيدة حليلة السعدية من ثديها معاً ، وبعد هذا كله كان  
صديقاً حميماً للنبي عليه الصلاة والسلام قبل النبوة، وأشد الناس شبهاً به .

### ما هو موقف أبو سفيان حينما أكرم الله النبي بالبعثة ؟

وهنا سؤال يطرح نفسه، حينما تأتي الرسالة لهذا النبي العظيم، فمن تتوقعون أن يكون أسبقَ الناس  
إلى الإيمان به؟ أبو سفيان، من كان ينبغي أن يكون أقرب الناس إليه؟ أبو سفيان، ولكن الذي  
حصل على خلاف ذلك، المفروض على أبي سفيان أن يكون أسبقَ الناس إلى تلبية دعوة النبي،  
وأن يكون أسرعهم مبادرةً لاتباعه، ولكن الأمر جاء على خلاف ذلك، إذ ما كاد النبي صلى الله  
عليه وسلم يظهر دعوته، وينذر عشيرته، حتى شبت نار الضغينة، الضغينة الحقد والكرهية، وقد  
يكون السبب هو الحسد .

استحالت هذه الصداقة إلى عداوة، واستحالت هذه الرحم إلى قطيعة، واستحالت هذه الأخوة إلى صد  
وإعراض، ويوم صدع النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة ربه كان أبو سفيان فارساً من أنبه فرسان

قريش، إنه فارس ملء السمع والبصر، الحقيقة أن الشجاعة كانت صفةً لصاحبها في العهود السابقة، فيها كُرِّ وقرَّ، هجومٍ وطعان .

أما الآن فإنك تجد جندياً أمام شاشة رادار يرى صورة الطائرة على شاشة الرادار، وعنده إشارة ضرب يحركها فوق الطائرة يضغط على زر فيسقطها، وقد يكون أشدَّ الناس جُبناً، الأسلحة الحديثة ليس فيها شجاعة، إنها أجهزة معقدة جداً، حتى إنهم قالوا: الحرب الحديثة حرب بين عقليين، أما الجندي فقد يكون شارب خمر، وقد يكون مقصراً مع ربه، وقد يكون جبائلاً، لكن قضية إلكترون، وأجهزة، وأشعة الليزر، الشجاعة الحقيقية يوم كانت الحرب بالسيف، سيف لسيف ، ووجه لوجه . كان أبو سفيان شاعراً من أعلى شعرائهم، فما إن امتلأ قلبه حقداً وضغينةً وحسداً حتى وضع سنانه ولسانه في عداوة النبي، وقد يكون جرح اللسان أبلغ من جرح السنان، جند طاقاته كلها للنكايه بالإسلام والمسلمين، فما خاضت قريش حرباً ضد النبي صلى الله عليه وسلم إلا كان مسعرها، ولا أوقعت بالمسلمين أذى إلا كان له فيه النصيب الأكبر، كتلة شر وحسد .

لقد بدأت الدرس بهذه الكلمة، الحسد مهلك، بدأ بصاحبه فقتله، فإذا كان الواحد له أخ فاقه بالإيمان فليستعن به بالعلم، والآن في الجيش هناك ضباط أمراء عميد فما فوق، فإذا دخلوا كلية الأركان وفيها ضابط نقيب مختص في الحرب الإلكترونية، وهو الذي يعلمهم، يفتقون له، ويستعدون عند دخوله، ويحيئوننه، على أنه الضابط المدرب، فهو



الآن أرقى منهم، وقد يكونون أرفع منه منصباً، وقد يكونوا عمداً، لكن الضابط المدرب الآن أعلى منهم .

فإذا اتصل الإنسان برجل، بصديق، فلو أنه من سنّه لا يمنعه الحسد أن يصدّ عنه، استنقذ منه، والإنسان حينما يتواضع لله عز وجل فإنه يكرم نفسه، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

**((ألا يا رُبَّ مكرم لنفسه وهو لها مهين))**



الآن ترون أنه أكرم نفسه فأهانها الله، وأبت نفسه أن تؤمن برسول الله، مع أنه ابن عمه، وأخوه من الرضاعة، وصديقه الحميم، وأشبه الناس به، وابن لدته، وقريبه، ومع كل ذلك فالحسد منعه أن يؤمن، ثم إن أبا سفيان بن الحارث أطلق شيطاناً شعره، وسوط لسانه في هجاء رسول الله، فيا للبوار والخسار . يا أيها الأخوة الأكارم، نعوذ بالله، أن

نكون في خندق نعادي المسلمين، وأن نكون في صف أعداء المسلمين، لأنك إذا حاربت الله ورسوله فالله هو المنتصر ورسوله، وأنت المهزوم الخاسر، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾

(سورة الأنفال الآية: ٣٦)

هذا الذي يحارب الله ورسوله، يريد أن يطفئ نور الله عز وجل، يريد أن يشوه سمعة المسلمين، أن يطعن بهم ظلماً وعدواناً، أن يسفه دعوتهم، أن يطعن بأخلاقهم، تشفياً لنفسه، لما في قلبه من الحسد، هذا الذي وقع به أبو سفيان، المتوقع أن يكون أقرب الناس إلى النبي، المتوقع أن يكون مكان أبي بكر، قرابة على رحم، على شبّه، على لدة، على



أعداء المسلمين يحاولون أن يطفئوا نور الإسلام

صداقة حميمة، على نسب، وطالت عداوة أبي سفيان بن الحارث للنبي عليه الصلاة والسلام حتى قاربت عشرين عاماً، عشرون عاماً يناصب النبي العدا، عشرون عاماً يهجو بلسان مقذع، عشرون عاماً يحاربه بسنان لا يلين، لم يترك أبو سفيان بن الحارث في هذه الأعوام العشرين ضرباً من ضروب الكيد للنبي صلى الله عليه وسلم إلا فعله، ولا صنفاً من صنوف الأذى للمسلمين إلا اجترحه، وباء بإثمه.

ما هو الحال الذي كان عليه أبو سفيان حينما رفع الله ذكر الإسلام وما هو الرأي الذي اقترحه عليه زوجه ؟

قبيل فتح مكة بقليل كُتب لأبي سفيان أن يسلم، وكان لإسلامه قصة مثيرة وعتها كتب السير، وتناقلتها آثار التاريخ، والآن نتخى جانباً لندع الحديث لأبي سفيان نفسه، حتى يروي لنا قصته المثيرة عن إسلامه، فشعوره بها أعمق شعور، ووصفه لها أدق وأصدق .

أنا أشعر، أن في قصة هذا الصحابي من المواعظ والعبرة ما لا سبيل إلى حصره، الآن أحاول إن شاء الله تعالى أن أعمق التحليل لهذه القصة المثيرة .

قال أبو سفيان بن الحارث:

((لما استقام أمر الإسلام، وقرّ قراره، وشاعت أخبار انتصار النبي صلى الله عليه وسلم، وتوجه

إلى مكة ليفتحها ضاقت علي الأرض بما رحبت، أين أذهب؟ ولمن ألتجئ؟ -قال عليه الصلاة

والسلام:

((إذا أردت إنفاذ أمرٍ تدبّر عاقبته))

أحياناً يسافر الإنسان إلى بلد أجنبي، يتساءل: ما هذه الحياة؟ وهل نحن من أهل الحياة؟ خير إن شاء الله، السيارات، الطرقات، محلات البيع الأنيقة، أرض كلها خضراء، جبال مزدهرة، معامل، مطارات، فانبهر وغشيت عينه غشاوة، كما غشيت قلبه فكرة، فأخذ إقامة، وتزوج فتاة أمريكية وركن واطمأن



لكن المشكلة حينما يرى ابنته مع صاحب لها يهودي، فلما أزعجه طلبوه إلى المخفر ليؤنبوه، هو معها بدعوة من ابنتك، فلم تتعرض لهما؟ وحينما يرى أولاده فلذات أكباده ينحرفون انحرافاً خطيراً، ولا يستطيع أن ينقوه، عندئذ يذوب قلبه ألماً وكمدًا، نقول له: أين عقلك؟ أنت حينما أردت أن تقيم هناك لم لم تفك؟ من أقام مع المشركين فقد

برئت منه ذمة الله، وعلى كل من هو العاقل؟ هو الذي يحتاط للأمر قبل وقوعها- .

ثم جئت زوجتي وأولادي، وقلت: تهيوؤوا للخروج من مكة، فقد أوشك وصول محمد، وإنني لمقتول لا محالة إن أدركني المسلمون، فقالوا لي: أما أن لك أن تبصر أن العجم والعرب قد داننت لمحمد بالطاعة إلى متى تبقى راكباً رأسك؟ وإلى متى العناد؟ إلى متى الكبر؟ -صدق القائل:

إلى متى أنت بالذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول  
أما تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تخشى من عتبنا يوم جمعنا  
أما أن تفلع عن الذنب راجعاً وتنتظر ما به جاء وعدنا  
تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمرى في المقال شنيع

أحياناً أيها الأخوة، تكون الزوجة أصفى من الزوج قلباً، وأصوب رأياً، وقد تنصحك نصيحة أبلغ من أية نصيحة، ابنك قد ينصحك - قال: وما زالوا بي يعطفونني على دين محمد، ويرغبونني فيه حتى شرح الله صدري للإسلام))

قرر أن يخطب ابنة الملك، قال: الحمد لله، أنا موافق، وأبي موافق، وأمي موافقة، لكن بقيت هي وأمها وأبوها، فهذا الرجل أحب أن يسلم، والطرف الثاني هل يقبلك؟ عداوة طويلة لأنه ما حفظ خط الرجعة إطلاقاً، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أَحِبِّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة في سننه]

## كيف استقبل النبي مجيء أبو سفيان ؟

ثم قال:

((قمت من تومي، وقلت لغلامي: هيئ لي نوقاً وفرساً، وأخذت معي ابني جعفرًا، وجعلنا نغذ السير نحو الأبواء بين مكة والمدينة فقد بلغني أن محمدًا نزل فيها، ولما اقتربت منها تنكرت، لماذا تنكر؟ لأن أصحاب النبي لو رآه لقتلوه، لأنه عدو لدود، هذا عدو لله ورسوله، تنكرت حتى لا يعرفني أحد، فأقتل قبل أن أصل إلى النبي، وقبل أن أعلن إسلامي بين يديه، ومضيت أمشي على قدمي نحواً من ميل وطلّاع المسلمين تمضي ميممةً شطر مكة، جماعة إثر جماعة، فكنت أنتحي عن طريقهم فرقاً؟ أي خوفاً منهم، وفرقاً من أن يعرفني أحد من أصحاب محمد، وفيما أنا كذلك إذ طلع النبي صلى الله عليه وسلم في موكبه، قال: فتصدت له، ووقفت تلقاءه، وحسرت عن وجهي فما إن ملأ عينه مني وعرفني حتى أعرض عني إلى الناحية الأخرى، فتحولت إلى ناحية وجهه، فأعرض عني وحول وجهه، -وفي القرآن آية تؤكد هذا المعنى، هذه الآية كتبت أمام قبر النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ  
اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ  
فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ  
لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾

(سورة النساء الآية: ٦٤)

يقول هذا الصحابي:

كنت لا أشك وأنا مقبل على النبي أن  
رسول الله سيفرح بإسلامي ، وأن



من ابتعد عن طريق الحق فليس من السهل أن يعود إلى  
الله عز وجل

أصحابه سيفرحون لفرحه))

لو كان هذا قبل عشرين سنة لصحّ كلامك، أمّا بعد هذا العدا، والجفاء، وبعد القتال، والهجاء،  
فالقضية ليست سهلة .

يقول أحد الأخوان مسوّفاً: غداً سأتوب، من قال لك ذلك؟ إذا تلبّس الإنسان بمعصية فالقضية ليست  
سهلة، حينما يتورّط الإنسان وينحرف، ويرتكب المعصية، فليس من السهل أن يعود إلى الله بعد أن  
كثرت الحُجُبُ بينك وبين الله .

هل أعرض المسلمون عن أبي سفيان اقتداء بالنبي ؟

أيها الأخوة، قال:

((لكن المسلمين حينما رأوا إعراض الرسول عني تجهموا لي، وأعرضوا عني جميعاً، فقلت: يا  
جماعة، قد أسلمت، فات الأوان، تأخرت كثيراً، لقد لقيني أبو بكر فأعرض عني أشد الإعراض،  
نظرت إلى عمر بن الخطاب نظرة استميل بها قلبه، فوجدته أشد إعراضاً من أبي بكر، بل إنه  
أغرى بي أحد الأنصار، فقال لي الأنصاري: يا عدو الله، أنت الذي كنت تؤذي رسول الله، وتؤذي  
أصحابه، وقد بلغت في عداوتك للنبي مشارق الأرض ومغاربها؟ وما زال الأنصاري يستطيل عليّ  
ويرفع صوته، والمسلمون يتفحصونني بأعينهم، ويُسِرُّون بما ألقى، حتى أبصرت عمي العباس  
فلذتُ به، وقلت يا عم: قد كنت أرجو أن يفرح رسول الله بإسلامي، -أما للإسلام بهجة! أما يفرح  
أحدٌ بإسلامي، لقد تأخرت كثيراً، وهذا الكلام أقوله لكم: لا تتأخر بالتوبة أيّاً كنت، حتى لا يفوت  
الأوان، فعليك بالتوبة وأنت شاب، في أوج صحتك، وفي أوج شبابك، أمّا الآن فقد فات الأوان،  
جاء وقد غرق في المعاصي، وبعدها ملّ، وضعفت نفسه، وضعف جسمه، الآن يريد المساجد  
وخيرها، ريح الجنة في الشباب - .



عند ذلك أبصرت عمي العباس فلذت به، وقلت يا عم: شفاعتك، قد كنت أرجو أن يفرح رسول الله بإسلامي لقرابتي منه، وشرفي في قومي، لم تعد شريفاً الآن، الشرف أن تؤمن وقد كان منه ما تعلم، ما سلم علي، ما قبلني، ما نظر إليّ لا هو، ولا الصديق، ولا عمر، فكلمته في ليرضى عني، فقال: لا

والله لا أكلمه كلمةً أبداً بعد الذي رأيته من إعراضه عنك، إلا إن سنحت لي فرصة فإني أجل رسول الله وأهابه، فقلت يا عم: إلى من تكلمي إذاً، وماذا أفعل؟ .

-إذاً: يا أخوان، عندما يشعر الإنسان أن الله عز وجل أعرض عنه، وبالتعبير القرآني: لعنه، وإذا سقط الإنسان من عين الله، أو سقط من عين المؤمنين، وقد ارتكب حماقة، وارتكب معصية، وعادى أهل الحق، وافترى عليهم افتراء، والله الأرض كلها لا تسعّه، والله لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أعضاؤه ويموت أهون ألف مرة من أن يسقط من عين الله ، هذا يعيش في جهنم- .



قال: ليس لك عندي غير ما سمعت، فتملكني الهمة، وركبني الحزن، ولم ألبث أن رأيت ابن عمي علي بن عمي أبي طالب فكلّمته في أمري، فقال لي مثل ما قال عمي العباس، فالكل يعرض، ولا أحد يتورط، ولا أحد يعصي الله، عند ذلك رجعت إلى عمي العباس، وقلت يا عم: إذا كنت لا تستطيع أن

تعطف عليّ قلب رسول الله فكفّ عنك الرجل، هؤلاء سوف يقتلونني ، فخلّصني من هذا الذي يشتمني ويغري الناس بشتمي، فقال: صفه لي فوصفته له، فقال: ذلك النعيّمان بن حارث النجاري



فأرسل إليه، وقال له يا نعيمان: إن أبا سفيان ابن عم رسول الله، القرابة لها شأنها، وابن أخي، وإن يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ساخطاً عليه اليوم فسيرضى عنه غداً، فكفّ عنه، وما زال به حتى رضي بأن يكفّ عني، وقال: لا أعرض له بعد الساعة))

إذا كان لأحد مكانة في المسجد فلا

يضحي بها، لا يرتكب معصية، حتى إذا عرف أخوانه معصيته احتقروه، فتكريمك، والاحتفال بك، والسلام الذي فيه مودة بالغة، واللقاء البشوش، والاحترام الكبير، والمكانة العلية التي لك بالجامع ناتجة من استقامتك، من التزامك، من طاعة الله عز وجل، أمّا إذا قلت: أنا عليّ هؤلاء، أرضيهم، وأرضي أولئك، فإذا كشفوك سقطت من أعينهم، فلا تكن لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، كن مع الحق فقط، ولا بأس عليك، فحينما يكون للإنسان مكانته يعيش بسمعته، ويعيش بكرامته، لأنه مستقيم أخلاقياً، مطيع لله، له أخوان يحبونه، وهذه نعمة كبيرة .

### هل خفف النبي جفوته لأبي سفيان حينما ضاق عليه الأمر من هذا البعد عنه ؟

قال:

((ولما نزل النبي صلى الله عليه وسلم بالجحفة، جلست على باب خيمته، ومعني ابني جعفر قائماً، فلما رأي النبي وهو خارج من منزله، أزاح عني بوجهه، أعوذ بالله، لا أمل لي ، فلم أئبس من استرضائه، وجعلت كلما نزل بمنزل اجلس على بابه، وأقيم ابني جعفرًا واقفًا بحذائي، فكان إذا أبصرني أعرض عني، وبقيت على ذلك زماناً، فلما اشتد علي الأمر وضاق، قلت لزوجتي: والله ليرضين عني رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهبن هائمين على وجوهنا في الأرض حتى نموت جوعاً، -ما عاد يحتمل الصد، والبعد، والجفاء، لا يحتمل أن يواجهه به نبي كريم، وكل الأصحاب سعداء بصحبته، سعداء بقربه، سعداء بخدمته ، والنبي معرض عني- قال: فلما بلغ ذلك رسول الله، رق لي، ولما خرج من قبته نظر إليّ نظراً لكن أليّن من النظر الأول وكنت أرجو أن يبتسم فلم يبتسم .



—وبصراحة أقول لكم: ابتسامه من رسول الله في وجهك تعدل الدنيا وما فيها، فكيف إذا قال النبي لأحد أصحابه: والله يا معاذ إني لأحبك، ارم سعد فذاك أبي وأمي، هذا خالي أروني خالاً مثل خالي؟ إذا داعب النبي إنساناً، وهش في وجهه ويش، والله هذه سعادة ما بعدها سعادة، وهذا يعني

أن الله راضي عنه، لأنّ رضى النبي من رضى الله عز وجل، قال الله:

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾

(سورة التوبة الآية: ٦٢)

ثم دخل النبي عليه الصلاة والسلام مكة، فدخلت في ركابه، وخرج إلى المسجد فخرجت اسعى بين يديه، لا أفارقه على حال))

قال الشاعر:

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

الإحاح على الله عز وجل مقبول، يا رب أرجو رضاك، يا رب أرجو رحمتك، يا رب أرجو توبتك عليّ، لو أنك ما شعرت بشيء أول يوم، اصبر لليوم الثاني، ولليوم الثالث، والرابع، وقد صدق القائل في قوله:

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ما هي الفرصة التي وجدت لأبي سفيان ليكفر عن ماضيه وما هي الكلمة التي سمعها من النبي استطار بها فرحاً؟

قال:

((ولما كان يوم حنين جمعت العرب من أهل الشرك لحرب النبي صلى الله عليه وسلم، ما لم تجمع قط، وأعدت للقائه ما لم تعد من قبل، وعزمت على أن تجعلها القاضية على الإسلام والمسلمين، وخرج النبي صلوات الله عليه في لقائه في جموع من أصحابه فخرجت معه، ولما رأيت جموع المشركين الكبيرة قلت: والله لأكفرن اليوم عن كل ما سلف مني، من عداوة رسول الله، وليرين النبي مني ما تقر به عينه، قال: ولما التقى الجمعان اشتدت وطأة المشركين على المسلمين، فدبّ فيهم الوهن والفسل، وجعل الناس يتفرقون عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكادت تحل بنا الهزيمة المنكرة، فإذا بالنبي فداه أبي وأمي، يثبت في قلب المعركة على بغلته

الشهباء، كأنه الطود الراسخ، ويجرد سيفه، ويجاهد عن نفسه وعن حوله، كأنه الليث عادياً، عند ذلك وثبت عن فرسي، وكسرت غمد سيفي، والله يعلم أنني أريد الموت دون رسول الله، وأخذ عمي العباس بلجام بغلة النبي، ووقف إلى جانبه، وأخذت أنا مكاني من الجانب الآخر، وفي يميني سيفي أدود به عن رسول الله، أما شمالي فكانت ممسكةً بركاب النبي، ويده السيف يدافع بها عن رسول الله، فلما نظر النبي إلى حسن بلائي، قال لعمي العباس: من هذا؟



أعظم سعادة يشعر بها المؤمن أن الله ورسوله راضون عنه

فقال العباس: هذا أخوك يا رسول الله، هذا ابن عمك أبو سفيان، فارض عنه يا رسول الله، فقال: قد فعلت، وغفر الله له كل عداوة عاداني إياها، فاستطار قلبي فرحاً برضى رسول الله عني، وقبلت رجله في الركاب، ثم التفت إليّ، فقال له: أخي لعمري تقدم فضارب -وبهذا تمّ الصلح .

أيها الأخوة، أقسم بالله العظيم، ما من سعادة أعظم عندنا من أن يشعر المؤمن أن الله يحبه، وأن الله راض عنه، ورضاء رسول الله من رضاء الله - قال: ألهمت كلمات رسول الله حماستي فحملت على المشركين حملة أزالتهم عن مواضعهم، وحمل معي المسلمون حتى طردناهم قدر فرسخٍ ففرقتاهم في كل وجه، قال: ظل أبو سفيان بن الحارث منذ حينين في نعيم القرب))

فالمؤمن باستقامته وإخلاصه لله، وثقته بالله في جنة القرب، صدق القائل:

لو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا  
ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا  
ولو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحي قتيلاً بحبنا  
ولو نسمت من قربنا لك نسمة لمت غريباً واشتياًقاً لقربنا  
ولو لاح من أنوارنا لك لائح تركت جميع الكائنات لأجلنا  
فما حبنا سهلٌ وكل من ادعى سهولته قلنا له قد جهلتنا

أقول لكم: لكل واحد منكم، وأنا معكم،  
 يظن المرء أن الإسلام قضية ركعتين  
 وليرتدين لفقير، فمن كان ظنُّه هذا فهو  
 أحق، ألا إن سلعة الله غالية، وفي  
 مسيرة الإيمان امتحانات، وظروف  
 صعبة يمر بها المؤمن، فهل يثبت؟ قال  
 رجل للنبي صلى الله عليه وسلم:



لا بد من تجاوز الصعوبات لإثبات صحة الإيمان

((والله إني لأحبك، قال له: انظر ماذا تقول؟ قال له: والله إني أحبك يا رسول الله، قال له: انظر،  
 ماذا تقول؟ قال له: والله إني أحبك، قال له: إن كنت صادقاً فيما تقول فللْفَقْرِ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ  
 شَرِكِ نَعْلِكَ))

لا تغلطوا في فهم الحديث، إذا أنت أحببت رسول الله، ولديك صفقة تجارة فيها ثلاثة أرباع المليون  
 خلال أسبوع، ولكن فيها مادة محرمة، أتقبلها؟ ضعها تحت قدمك، وظيفة راقية جداً فيها مكاسب  
 كثيرة جداً لكن لا ترضي الله أتقبلها؟ لا، سفرة لبلد غربي تقبلها إذا كانت لغير الله؟ لا تقبلها، فإذا  
 أراد الإنسان أن يستقيم فلا بد أن يضحى، ولا يقبل إلا ما هو حلال يرضي الله تعالى، وهنا يكون  
 الإيمان، ويكون لك الفلاح .

انظر إلى حياء أبي سفيان خجلاً من الأيام التي كاد بها النبي وانظر إلى تلاوته للكتاب الذي  
 شغف قلبه به :

كان أبو سفيان بعد وقعة حنين ينعم بجميل رضى النبي عنه، ويسعد بكريم صحبته، من خجله منه،  
 وقيل: إنه لم يرفع نظره إليه أبداً، هذه العشرون سنة كسرت نفسه وحجّمته، ما رفع نظراً له أبداً، ولا  
 ثبت نظره في وجهه حياء منه، وخجلاً من الماضي معه .

والله يا أخوان، عندنا جنة في الدنيا، تتحقّق للمؤمن بالقرب من الله، ولكن لا بد أن يضحّي ويستقيم،  
 فاضبط شهواتك، واحضر مجالس العلم، وأثر الله ورسوله على كل شيء، وجعل أبو سفيان يعرض  
 بنان الندم على الأيام التي قضاها في الجاهلية، المؤمن الصادق أيها الأخوة إذا تذكر جاهليته، أو  
 تذكر أيام المعاصي والفجور يذوب مثل الشمعة ندماً، وجعل أبو سفيان يعرض أصابع الندم على تلك  
 الأيام التي قضاها في الجاهلية محجوباً عن نور الله، محروماً من كتاب الله، قال تعالى:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا

وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾

(سورة هود الآية: ٢٨)

وقال تعالى:

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾

(سورة القلم الآية: ٢)



المؤمن في سعادة، والله لا تستطيع سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة أن تصرفاه عنه، قال له: أتحب أن يكون محمد مكانك؟ قال: لا والله لا أحب أن أكون في بيتي وأهلي، وعندني عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة، ماذا فعل هذا الصحابي الجليل؟ قال: أقبل على كتاب الله يقرؤه ليلاً ونهاراً، ويتفقه في أحكامه،

ويتملى من عظاته، وأعرض عن الدنيا وزهرتها، وأقبل على الله بكل جارحة من جوارحه، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم رآه ذات يوم يدخل المسجد، فقال لعائشة رضي الله عنها:

((يا عائشة، أتدريين من هذا؟ قالت: لا والله، قال: إنه ابن عمي أبو سفيان، انظري إليه إنه أول من يدخل المسجد، وآخر من يخرج منه، ولا يفارق بصره شرك نعليه أبداً))

ولما لحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى حزن عليه أبو سفيان حزن الأم على وحيدها، لا على ابنها، بل على وحيدها، وبكاء الحبيب على حبيبه، ورثاه بقصيدة، فهو شاعر، فهذه مناسبة تجود بها القرائح الشعرية، ورثاه بقصيدة من أرق المراثي، تفيض لوعةً وشجوناً، وتدوب حسرةً وأنيباً .

كيف استقبل أبو سفيان الموت ؟

وفي خلافة الفاروق رضي الله عنه أحس أبو سفيان بدنو أجله، فحفر قبره بنفسه، ولم يمض على ذلك غير ثلاثة أيام حتى حضرته الوفاة، كأنه مع الموت على ميعاد، فالتفت إلى زوجته وأولاده وأهله وهم يبكون حوله، ماذا قال لهم: لا تبكوا علي، ولا تحزنوا، فو الله ما تعلق



سيدنا أبو سفيان بن الحارث

بخطيئة منذ أسلمت؟ فهو مطمئن، هكذا فليكن المؤمن، تربية النبي كانت راکزة، رياه تربية توبة. أنا أعتقد والله أعلم أنّ النبي من أول لقاء فرح بإسلامه، لكن باعتبار عشرين سنة عدا، فمن أخذ البلاد من غير حرب يهّن عليه تسليمها، وحتى رضي عنه مضت فترة طويلة، ثم فاضت روحه الطاهرة فصلى عليه الفاروق نفسه، وحنن لفقده هو وأصحابه الكرام، وعدوا موته جلاً حل بالإسلام وأهله .

### ماهو المغزى الذي نستنبطه من قصة هذا الصحابي الجليل ؟

هذه قصة أبي سفيان بن الحارث ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وليس من السهل أن تتوغل في المعاصي، وتعود متى أردت إلى الله، وهذا هو المغزى، لا، إنّ الله عزيز، قال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

(سورة الزمر الآية: ٥٣)

فعلى المسلم ألا يتورط، فلا يعصي، ولا يضحى بسمعته عند المؤمنين، فسقوطه من أعينهم أمر فادح جلل، مكانتك لها ثمن، المودة لها ثمن، الحب له ثمن، النبي قال: الجماعة رحمة ، أنت منضم إلى جماعة مؤمنة، محبوب، مكرم، معزز، ومفارقة الجماعة خسارة، فعن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إِنَّ الشَّيْطَانَ ذَنْبُ الْإِنْسَانِ كَذَنْبِ الْعَنْمِ يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشَّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ))

[أخرجه أحمد عن معاذ بن جبل في مسنده]

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنفُسُهُمْ﴾

(سورة التوبة الآية: ١١٨)



أي الثلاثة الذين خَلَفُوا، فمن كان المؤدب؟ إنّه الله عز وجل، وفي درس اليوم من المؤدب؟ إنّه النبي صلى الله عليه وسلم، لكن بوحى من الله عز وجل، وقد يؤدّب ربنا إنساناً أسرف على نفسه، وقبل توبته، وليحذر أن يعود إلى الذنوب ثانية، فالعائد إلى الذنب كالمستهزئ بربه، وقد تكون الخاتمة وبيلة .

دخل النبي على بعض أصحابه، وكان مريضاً، فقال:

((يا رسول الله، ادعُ الله لي أن يشفيني، أن يرحمني، فقال: يا رب ارحمه، قال: فجاء الوحي للنبي، فقال يا محمد: كيف أرحمه مما أنا به أرحمه؟ وعزتي وجلالي لا أرحم عبدي المؤمن، ولا أقبض عبدي المؤمن وأنا



الله عز وجل لا يتخلى عن المؤمن الملح في طلبه

أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سينة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدت أمه))

كان للواحد منا جاهلية، فإنه سبحانه يطهره، فليرضَ وليسلم، وليتحمل، فهذا لصالحه، وهذه المعالجة كانت لصالح هذا الصحابي، والله عز وجل لا يتخلى عن المؤمن، ولكن لا تمل، وكن عبداً ملحاحاً، صدق القائل:

لا تسألن بني آدم حاجة وسلّ الذي أبوابه لا تُحجَبُ  
الله يغضب إن تركت سؤاله و بني آدم حين يسأل يغضب  
الإنسان يغضب إذا سئل، والله جل جلاله يغضب إذا لم يسأل .

**والحمد لله رب العالمين**